

مع المستشرق الروسي كراتشكوفسكي

تقاسم : ضليل تقبي الذنب

لينينغراد ... نوار ١٩٤٧

بجهاجم يبدو منها مكان العينين، والانف، والفم، فتحات سوداء
مخيفة تبعث القشعريرة في النفوس .
ماذا دهاها ؟

دهتها الثورة التي اندلعت منها في العام ١٩١٧ .. وها هي
امام عيني الساحات التي تكدست فيها الجثث في تلك الايام
الجمراء: فلما تدرج آخر رأس من رؤوس القياصرة التي جعلوها
عاصمة بذخهم وترفهم، غادرها لينين وخليفته ستالين الى موسكو
وخلّفوها تبكي عزها الغابر . ثم التف بها الالمان في الحرب
العالمية الثانية وضربوا عليها حصاراً دام عامين كاملين ، فلما
جلوا عنها كانت لينينغراد قد فقدت مليوناً من ابنائها ، وخسرت
اكثر ما كان فيها من تهاويل جمال شادتها يد الانسان .

* * *

... وكنت على موعد مع المستشرق الروسي الكبير
كراتشكوفسكي مدير « المعهد الشرقي » في لينينغراد . ولم
اكن قد لقيته في حياتي قط . لكنني كنت اعرف انه زار
لبنان ومصر عامي ١٩١١ و ١٩١٢ وأنه يتقن اللغة العربية
اتقاناً لا يدانيه فيه اي مستشرق آخر، وقد توفر على دراستها
طوال خمسين عاماً والف فيها بالروسية اكثر من عشرة كتب .
وكنت ضيق الصدر، منقبض النفس بعد تطواني في شوارع
لينينغراد. فقلت : لعلّ حديث الادب ، واللغة ، والاستشراق
يسرّي عني ، ويشبع نهمي الى المعرفة ، ويفتح امام عيني
آفاقاً جديدة . ولم يجيب كراتشكوفسكي ظني ، فكانت زيارتي
له ، وحديثي معه خير ما حملته من رحلتي الى لينينغراد من
ذكريات .

طرفت باب المعهد الشرقي فاستقبلني كهل عريض الوجه
ناتيء الوجنتين ادركت للوهلة الاولى انه من اواسط آسيا ،
وقبل ان اكلمه سار امامي ودلني على الطريق . ثم فتح امامي
باب مصعد ارتفع بنا الى الدور الرابع . وما كدت اخرج من
المصعد حتى تلقاني شيخ مهيب الطلعة طويل الشعر ابيضه بقوله ،

بطرسبرج ! عاصمة القياصرة ، ولينينغراد الثورة الجمراء ،
جثتها امس من موسكو بالقطار - وبينها ليلة - وندمت !
لشد ما يحزّ في نفسي ان ارى « عزيز قوم ذلّ ! » او غنياً
دار به دولاب الدهر فافتقر ! او امرأة عرفتها في ثورة الانوثة
الصارخة ، والجمال الجارف فعصفت بها السنون فتراخت ، وترهلت ،
وانطفأت الشعلة ، واحى الجمال ! او مدينة ذات قباب ، وقصور ،
ونماثيل ، ومفاتيح عدت عليها عوادي الزمن فاحالت عليها
سافلاً ، وجثم اليوم ينقع على اطلالها ..

بطرسبرج . لا بل لينينغراد . شادها بطرس الاكبر في
طلع القرن الثامن عشر على ضفاف ال « نيفا » ليطل منها
بالروسيا على مدينة اوروبا الغربية ويجعلها درّة في تاجه ، وجوهرة
فريدة في تيجان القياصرة من بعده . عاصمة ملك ضخيم وامبراطورية
متراامية الاطراف نزلتها وبي شوق اليها فصدمتني الكتابة المخيمة
عليها ، وراعني الفقر البادي على سكانها ، وهذا الاستسلام اليائس
الذي رأيت في وجوه ابنائها ، وتلك الخرائب السوداء التي طالعتني
طوال الطريق من المحطة الى الفندق .

عندما اراد بطرس الاكبر ان يبينها حشد لها اكبر عدد
عرفه البشر من عباقرة المصورين ، والنحاتين ، والنقاشين ،
والبنائين ، والصناع . جاء بهم من روما وباريس وبرلين ومن
كل بلد وصقع عرف ان فيه صاحب موهبة ، او ذا ذوق سليم
ويدين حاذقين . ثم اغرقهم بالمال فبنوا القصور وشادوا النماثيل ،
وتركوا للاجيال المتعاقبة صوراً ارادها خالقوها على ان لا تبلى
فكان « قصر الشتاء » ، وكان « الارميتاج » وكانت « كنيسة
اسحق » آيات من الفن خالدات . هذه المدينة التي عجزت افلام
تولستوي ، ودوستويفسكي ، وتشخوف عن ان تقي بوصفها ،
وقصر الشاعر بوشكين عن ان يوفيها حقها من الغناء ، وقفت
على اطلالها امس واليوم فاذا كل ما فيها يحدث عن مأساتها ،
واذا جدران منازلها القائمة من غير نوافذ وابواب اشبه ماتكون

العربية فصحي لا تشوبها اي لكمة : اهلا وسهلاً بحضرة الوزير قلت : بالمتأمل ، لا شك اني في حضرة استاذنا الكبير كراتشكوفسكي . قال ، وهذا هو كلامه بالحرف : « اخشى ان يصح في قول المتل . « تسمع بالمعيدي خير من ان تراه . » قلت : استغفر الله ياسيدي الاستاذ . اني سعيد بزيارتكم . قال وهو يتسهم ، بل يضحك : « انا صرت مثل الفيل في حديقة الحيوانات ، يزوره الناس « للفرجة . »

وكان قد دعاني للجلوس امام مكتبه ، داخل مكتبة كل جدرانها خزائن مليئة بالكتب العربية . ثم قدم لي سيكارة واستأنف الحديث فقال : - كيف فؤاد افرام البستاني ؟ هل هو يعلم دائماً في السوعية ؟ قلت : - اجل . قال : هل تعرفه شخصياً ؟ قلت . اعرفه جيداً ، وهو صديقي . قال : انا لا اعرفه شخصياً ولكنني اعرف عنه كثيراً . « الروائع » جميلة جداً . تعجبني اساليبه وانتقاداته . هذا كتاب يبدو صغيراً ، لكنه جميل ومبوهب نبويّاً حسناً . نحن ندرس بعض اجزاء من الروائع . مثلاً « الجاحظ » وابن بطوطة . فؤاد البستاني من عائلة البستاني المشهورة . اليس كذلك ؟ قلت : اجل وهو واحد من هؤلاء الاعلام الذين يفهم لبنان من حين الى حين الى الاداب العربية . واخفت : ومن تعرفون من ادباء العربية ياسيدي الاستاذ ؟ قال : - عندما زرت لبنان ومصر قبل الحرب الكونية الاولى تعرفت بعدد كبير من المشتغلين باللغة والاداب . لكنهم كاهم ذهبوا الى الآخرة . وانا اليوم تشرفت بمعرفتهم واعرف بالمكتبة ميخائيل نعيمه ، وطه حسين ، ومحمود تيمور . - وهل يصلحكم شيء من المؤلفات العربية الحديثة ؟

- يصلنا من مصر اكثر مما يصلنا من سوريا ولبنان وغيرها من البلاد العربية . وقد قرأت اخيراً « وحي الصحراء » لمحمد حسين هيكل . وهو كتاب يلفت النظر . وقرأت لطف حسين ، وهو متطرف قليلاً اعتبر ان جميع الشعراء كوضاح اليمن منجولون ، واطفته متطرفاً في هذا ، لكن انتقاداته مليحة ونظراته طيبة .

قلت . ياسيدي الاستاذ . يزعجني امر احب ان استشيركم فيه . كلما ركبت سيارة او طائرة او قطاراً وحاولت ان اسمي الاشياء التي تقع عليها عيناى باسماء عربية شعرت بعجزى او بعجز لغتي . واخاف ان تتخلف اللغة العربية عن ركب الحضارة . فكيف السبيل الى تدارك ذلك ؟ كيف السبيل الى

لحاق اللغة العربية بالتحترعات الحديثة ، والتعبير عنها ؟ قال كراتشكوفسكي : - اظن انه يوجد طرق متنوعة . وكنتم ان تفعلوا مثلاً فعلنا نحن بالروسية . نحن اذا لم نستطع ان نترجم كلمة اجنبية الى الروسية اخذناها كما هي وتركنا للاستعمال ان يضلها ويهذيها . اللغة العربية قوية جداً وهذه سعادتها لانها تهضم جيداً كل الكلمات التي تأخذها من اللغات المتنوعة .

قلت : - كنت منذ ايام اتمشى في احد شوارع موسكو فقرأت في واجهة مخزن كلمة « اودو كولونيا » بالروسية مع انها كلمة فرنسية بل ثلاث كلمات Eau De Cologne . ولما سألت في ذلك سكرتيري الروسية ناقشتني وادعت ان الكلمة روسية خالصة ولا علاقة لها بالغة الفرنسية . فضحك الاستاذ كراتشكوفسكي وقال : ولم لا ؟ لماذا لا تصيح هذه الكلمة روسية ؟

قلت : ان سيدي الاستاذ اذن مؤمن بمستقبل اللغة العربية اذا اخذنا الكلمات الاجنبية كما هي كلما تعذرت علينا الترجمة والاستشاق .

قال : اجل . اجل . لقد اخذتم « تلفون » و « تلغراف » وهذا حسن جداً . ثم انفجرت اساريه عن ضحكة بريئة كضحكة الطفل وقال : ان لغة صنعت من كلمة « فوهرر » فهارر وفهاررة ، ومن كلمة « بنك » بنوك وبنوك لا يخشى عليها ، ولولم اكن مؤمناً بمستقبل اللغة العربية لما كنت اشتغلت بها خمسين عاماً . اني لست مؤمناً فقط بل اني موقن ، هذا هو اليقين . اني من الموقنين باللغة العربية . كل الدلائل تدل على ذلك . وختم عبارته بقوله : « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . كان كراتشكوفسكي يتحدث الي وهو بادي الحيوية والنشاط . لكنني قلت له ، ولا ادري لماذا : - اخاف ان اتعبك ياسيدي الاستاذ .

فما كان منه الا ان اجابني : « تعبكم راحة ، تعبكم راحة » ثم نهض من مكانه ودعاني الى زيارة المكتبة وبدأ يتكلم العامية بعد ان كان يتكلم الفصحى . قال لي : تفضل تنشوف المكتبة بدّي فرجيك قسم المخطوطات . . .

وأخر كتاب اصدده كراتشكوفسكي كتاب باللغة الروسية « بينا انا منكب على المخطوطات العربية . »

واستغرق تطوافي بالمكتبة اكثر من ساعتين علمت في خلالها ان فيها عشرين ألف مخطوطة عربية ونحوها من عشرة آلاف

غزل

الحبيب الأسمر

اغنية الوصل

قِرَّةٌ عيني منعَّم أسمرُ
 أميرُ حسنٍ ، سبحان من أمرُ
 النهرُ والجسرُ ثمَّ موعدا
 خلف البساتين ، والهوى أخضرُ
 يجبني الف مـرَّة ، وأنا
 أحبه ألف مرَّةٍ أكثرُ
 مصوغةٌ منه مهجتي قطعاً
 مجبوكةٌ بالقوام والمئزرُ
 كأن في دله ومشيته
 غصنين جاآ وثالثاً قصرُ ...
 في شفتيه ، من وهم عضبها
 وردُّ يُعرَى وفتقٌ يُقشِرُ
 وعلى العنق ، حول مشقته
 عيد الغوالي ، وموسم العنبرُ

نحن في الحبِّ تلاقينا
 وعقدنا بين قلوبنا
 نحن في عيدٍ ، وفي فرحٍ ،
 بارك الحبُّ حوالينا
 قد لبسنا زينةً عجباً
 وعلى الوصل تحلينا
 نخسي ، والكأسُ واحدةٌ
 هكذا نحن تعاطينا
 شفتي في الكأس تتبعه
 دون أن يذكر لي أيننا ...
 لو بيت العمرُ نهرٌ طلا
 وعيننا ، ما تروينا !
 امين نخله

قال كراتشكوفسكي ان استاذاً فرنسياً اسمه كولان اشتغل فيها قبل الحرب لكنه لم يعد يسمع عنه شيئاً .
 - ديوان ذي الرمة : نسخة نادرة ، يوجد مثلها نسخة واحدة في العالم في اوكسفورد .
 واخيراً اراني مضيفي مخطوطة عجيبة هي مجلد واحد لا اول له ولا آخر وهو تاريخ بني امية وقيام الخلافة العباسية . قال عنه كراتشكوفسكي : وجدنا هذا المجلد في آسيا الوسطى عام ١٩١١ ولا يوجد منه نسخة اخرى في اي بلد آخر .

كنت قد قضيت في صحبة كراتشكوفسكي اكثر من ثلاث ساعات عندما ودعته وكانت آخر عبارة عربية رنت في اذني قوله لي ، وانا اركب السيارة : على الطائر الميمون يا حضرة الوزير . نراك بخير ...
 وانتم بألف خير !

خليل تقي الدين

مخطوطة فارسية وتركية . وارانى المستشرق مخطوطات وصفها بانها « فريدة في نوعها » منها :

- مقامات الحريري مصورة - من القرن الثالث عشر وهي مخطوطة لا مثيل لها في العالم . وهناك مخطوطة في باريس واخرى في فينا ، لكن مخطوطة لينينغراد تمتاز عنها بعدد من الصور يبلغ المائة . وعلق المستشرق ، وهو يربني المخطوطة بقوله : ربما كانت هذه المقامات اقدم المخطوطات ، وهي تمثل المدرسة « السورية » (?) اي مدرسة ما بين النهرين .

- ديوان جرير وهو من اقدم النسخ اذ تعود هذه النسخة الى القرن الرابع الهجري ، وديوان جرير المطبوع لم يؤخذ عن هذه المخطوطة اذ هي لم تنشر بعد ، ويوجد في العالم مخطوطة ثانية فقط مثل هذه في مكتبة ليرن في هولنده .

- ديوان ابن قزمان وهو شاعر اندلسي عاش في القرن الثاني عشر المسيحي ، وهي نسخة وحيدة في العالم ، واسعاره كلها باللغة العامية لا الفصحى . ولا شك انها اصل الازجال ،